Adab Al-Rafidain

https://radab.mosuljournals.com

Features of the character in the poetry of Al-Hatayya

Tahseen Darwish Suliman
Lect. / Department of Arabic Language / College of Art/University of Mosul

Article Information

Article History:
Received July 22, 2023
Reviewer August 06 .2023
Accepted August 19, 2023
Available online March 01 , 2024

Keywords:
literature
Ego
Event
Reality
Fiction

Correspondence:
Tahseen Darwish Suliman
sulaiman.t.d@uomosul.edu.iq

Abstract

This research delves into the personality traits depicted in the poetry of the celebrated poet Al-Hutay'ah. Known for his widespread acclaim among critics and fellow poets, he has received both praise and criticism.

Born as Jarwal bin Aws bin Malik, Al-Hutay'ah earned his moniker, which became synonymous with his identity. The study reveals his affiliation with the literary traditions of Zuhayr bin Abi Salma and Aws bin Hajar, renowned for wisdom and skill in various poetic forms. Despite their remarkable talents, Al-Hutay'ah emerged distinctively, expressing his persona through poetry's artistic medium.

Ibn Salam Al-Jumahi ranks him alongside Ka'b bin Zuhayr, praising his robust verse and flawless rhyme. Additionally, Al-Hutay'ah is esteemed alongside other prominent poets like Al-Nabigha Al-Ja'di, Al-Qatami, Al-Shamakh, Amr bin Ahmar, and Ibn Muqbil, as noted in Al-Jamhara.

In Al-Aghani, an extensive biography extols Al-Hutay'ah as a leading poet proficient in various genres, including eulogies, satire, self-praise, and genealogy.

Ibn Rashiq Al-Qayrawani regards him as a representative of Arabic eloquence and poetic mastery. Amr bin Al-Ala' praised Al-Hutay'ah's verses, recognizing their sincerity and truthfulness.

The research concludes with Al-Asma'i's observation that while other poets' faults may be found, such imperfections are rare in Al-Hutay'ah's poetry.

Modern scholars hold diverse perspectives on his work, but Taha Hussein's opinion stands out. He commends Al-Hutay'ah's poetry for its grace, strength, and elegance, capturing a beauty that defies description.

In essence, this research emphasizes Al-Hutay'ah's poetic talent and the profound insights into his character that his verses reveal. His mastery of various poetic forms, along with the praise from both early and modern scholars, solidifies his position as a prominent and influential poet in Arabic literature.

DOI: 10.33899/radab.2023.141981.1971, ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

ملامح الشخصية في شعر الحطيئة

تحسين درويش سليمان *

* مدرس دكتور / قسم اللغة العربية/كلية الاداب/جامعة الموصل

المستخلص :

إن هذا البحث ــ ملامح الشخصية في شعر الحطيئة ـ يهدف الى تسليط الضوء على شاعر ذاع صيته وعلت الأصوات باسمه بين النقاد والشعراء, فمنهم من جرحه ومنهم من أنصفه .

هو الشاعر المخضرم جرول بن أوس بن مالك، المعروف بالحطيئة لقبٌ غلب عليه فعرف واشتهر به ، فأوضحنا من خلال هذا البحث بأنه تخرج في مدرسة زهير بن أبي سلمى وأوس بن حجر اللَّذين عرفا بالحكمة وسداد الرأي وأصحاب الحوليات مع موهبتهما الفذة ، فالحطيئة نسج أشعاره على جميع الأغراض ، ليرسم ملامح شخصيته من خلال موهبته الشعرية .

مما جعل ابن سلام الجمحي يجعله في الطبقة الثانية مقروناً بكعب بن زهير وقال عنه " وكان الحطيئة متين الشعر ، شرود القافية "أما صاحب الجمهرة ، فقد جعله مع النابغة الجعدي وكعب بن زهير والقطامي والشماخ وعمرو بن أحمر وابن مقبل .

وقد أفرد له صاحب الأغاني ترجمة وافية في كتابه :هو"من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم ، متصرف في جميع فنون الشعر من مديح والهجاء والفخر والنسيب مجيداً في ذلك جميعاً "[2].

اما ابن رشيق القيرواني : فقد جعله شاهداً على حسن كلام العرب ، وعلى ما بلغه شعرهم من فصاحة وإتقان ، وعدَّ الحطيئة صاحب نسق الكلام ، حتى قال فيه عمرو بن العلاء " لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ونختم آراء الأقدمين في شعر الحطيئة برأي الأصمعي الذي قال : وما تشاء أن تقول في شعر شاعرٍ من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره وأما آراء المحدثين : فهي كثيرة ، ولكننا سنكتفي بواحدٍ منها يوجز وينصف وهو رأي الدكتور طه حسين ، فبعد أن يستعرض قصيدة الحطيئة في مدح علقمة بن علاثة ينتهي الى القول "فإني أرى في هذه الأبيات جزالة وصلابة ومتانة وارتفاعا وأجد فيها جمالاً لا أعرف كيف أصوره ، ولكنه يملك عليَّ أمري ، ولو أنني أطعت نفسي لقلت : إنّي أجد في هذه الأبيات رجولة الشعر " .

الكلمات المفتاحية : الأدب ،الأنا ،الحدث ،الواقع ،الخيال

المقدمة

كانت الملامح الشخصية في الشعر العربي قبل الإسلام تعتمد على الأسرة والقبيلة والواقع والمثال، فلما وجد الحطيئة نفسه محروماً من أبسط هذه المقومات، اعتمد على خياله الواسع ومقدرته الفذة وموهبته الشعرية ليعوض هذا الحرمان، وهو من الشعراء المخضرمين الذين لا يشق لهم غبار، وحسبه من ذلك أنه كان راوية لزهير بن أبي سلمى وتلميذه الذي تأثر به وبمدرسته التي تتطلب الكثير من الخبرة والدراية والمراجعة والتنقيح؛ لأنها حولت الشعر الى صنعة تظهر معالمها في شعر أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وكعب بن زهير والحطيئة، الذين أطلق عليهم بعض النقاد صفة "عبيد الشعر" في عنايتهم به "لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين"[(2)]، وهو ما دعانا إلى البحث عن ملامح شخصية الحطيئة على المستويات الذاتية والموضوعية والشعرية، وقد تمثّلت فيما يأتي:

1ـ صموده أمام المعايب التي تدمر الشخصية العربية برمتها؛ لأن الرجل العربي يفتخر بنسبه وينهض بقبيلته، وقد ولد بلا أسرة ترفعه ولا عشيرة معروفة تحتضنه مما شكّل عائقاً أمام تكامل شخصيته وعوّض ذلك بموهبته الشعرية.

2ـ افتقاره للمؤهلات التقليدية جميعها في الشخصية مثل: الجمال الخلقي والغنى والقوة البدنيةـ التي من شأنها أن تميزه عن غيره من الشخصيات الأدبية المرموقة، وهو ما جعله يشعر بالنقص إزاء من يملكون مثل هذه الصفات.

3ـ أصبح شخصية أدبية متميزة يشار إليها بالبنان ويهابها الملوك والأقوياء والشجعان، وأصبح شعره شواهد للبلغاء والنحويين وأصحاب المعاجم، وقد أفرد له صاحب الأغاني ترجمة وافية في كتابه، وقدمه بالقول: "وهو من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، متصرف في جميع فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ونسيب، وكان مجيداً في ذلك أجمع"[(3)].

أما ابن رشيق القيرواني فقد جعله شاهداً على حسن كلام العرب، وعلى ما بلغه شعرهم من فصاحة وإتقان وتكامل بين اللفظ والمعنى، فقال: "والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها ولكن في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض"[(4)]، ووصفه عمرو بن العلاء في سياق تفضيلي على مستوى صدق التجربة بقوله: "لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة:"[(5)]

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نارٍ عندها خير موقد

) [2]مجاني الأدب :فؤاد أفرام البستاني :35/2 ، المطبعة الكاثولكية, بيروت 1951

) [3]كتاب الأغاني ، 149/2 .

)[4] العمدة في محاسن الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني ،تح البنوي عبد الواحد شعلان ،ج،95/1.

)[5] كتاب الأغاني : ابي الفرج الاصفهاني :ج،166/2.

نال شعره الإعجاب واستحق الثناء لدى كثير من النقاد والعارفين بشؤون الشعر وقضاياه، وكل هذه الأمور دفعتنا للبحث والكتابة عن شاعر علا صيته وذاع بين الناس، على الرغم من المثبطات التي إذا نزلت على الجبال الراسيات فتتها وجعلتها هباءً منثوراً، فللباحثين والنقاد الذين تناولوه مذاهب ومناهج وآراء قد تلتقي أحياناً وقد تتناقض في أحيان أخرى، على النحو الذي ينبغي فيه التحقق السليم للنظر في شعر الشاعر بوصفه ميداناً للنقد والبحث والتحرّي، أكثر من الروايات الشخصية عن الشاعر، فهي قد تصيب وقد تخطئ ليبقى الشعر هو الحكم والفيصل.

التمهيد

أولاً: مفهوم الشخصية

الشخصية هي الطريقة المميزة في التفكير والشعور والتصرف، وهي تشمل الخصائص السلوكية، والسمات المتأصلة والمكتسبة، التي تميز شخصاً عن الآخر في سياق التعارف والتعامل معه، والأشخاص ينقسمون على ثلاثة أقسام: قسم ظاهره جميل وباطنه سيء، وقسم باطنه جميل من حيث القلب وظاهره عكس ذلك، وقسم ظاهره وباطنه سواء في الخير أو الشر أي في الجمال والقبح، كما قال زهير بن أبي سلمى:[6]

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

إذ إن اللسان يعبر عن المنطق والعقل والمكنون الخارجي للإنسان في تعبيره عن جوهر الذات وكينونتها العميقة، والفؤاد يُعبّر عن العاطفة والمكنون الداخلي له، فبهذا يكون قد اكتمل بنيان الإنسان عند زهير بن أبي سلمى، وهكذا الشخصيات تكون محبوبة لدى الآخر حسب صفاتها المعروفة العامة: مثل الكرم والشجاعة وحب الخير للآخرين ودفع الشر عنهم والصدق في القول والعمل الجاد والصادق، وثمة مجموعة أخرى من ملامح الشخصية المتعارَف عليها بين الناس، مثل الشخصية الاجتماعية والشخصية السياسية والدينية أي القيادية.

ثانياً: مفهوم الشخصية الشعرية في العمل الأدبي

انتقل مصطلح "الشخصية" من حقل الفنون السردية القصصية والروائية إلى الشعر بوصفه عنصراً أصيلاً من عناصر التشكيل في النصوص السردية، فالشخصية في المنظور السردي تمثل "أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة"[7]، لكن الشخصية السردية على هذا النحو تختلف عن الشخصية في الشعر بملامحها وطبيعتها ووظيفتها، فثمة ملامح خاصة للشخصية في النصوص السردية تختلف عنها في النصوص الشعرية، لما تفرضه طبيعة الشعر من مهيمنات تشكيلية خاصة ومغايرة للمهيمنات السردية.

تقوم تشكيلية الشعر بالدرجة الأساس على الموهبة اللغوية الخاصة وعلى الاستخدام النوعي للغة بصورة عامة، وعلى فعاليات الإيجاز والتكثيف والاقتصاد اللغوي والإعلامي،اللواتي تفرض على الشاعر ، فنشير إلى بعض عناصر الشخصية الشعرية من دون التوسع في رسم ملامحها كما هي الحال في القصة أو الرواية. ولكن الذي يجمع بين الشخصية الشعرية والشخصية السردية هو أن عنصر الشخصية فيهما هو من إبداع خيال المنشئ، ويتأتى من مخزونه الثقافي والاجتماعي وبيئته التي انحدر منها وزمانه من حيث المؤثرات الخارجية التي تحيط بالشخصية الأدبية سواءً كانت شعرية أم سردية، غير أنّ الذي تتفرد به الشخصية الشعرية في ميدان بناء القصيدة هو أن الشخصية الشعرية في الأغلب الأعم لها علاقة بشخصية الشاعر، فالقصيدة العربية على العموم هي قصيدة غنائية تكون فيها الذات الشاعرة محوراً للفعاليات الشعرية، فهي قصيدة ذاتية تعبّر عن شخصية الشاعر ونفسه وعن همومه وتجاربه في الحياة والطبيعة والفكر.

يمتلك الشعر في هذا السياق "حاضنة لغوية بمثابة نص قادر على أسلبة المرجعيات المختلفة أي اتساع السياقات الواحدة لوظائفه الأسلوبية، ومن هنا نجد أن وظيفة الشخصية السردية تحديداً تخضع لمسار النص الشعري، وليس لمسار السرد الذي يمكن افتراضه ببنية محايدة يمكن عزلها عن شعرية النص "[8]، ومن هنا يأتي الاختلاف التشكيلي بين بنية النص الشعري وبنية النص السردي على مستوى عنصر الشخصية.

---

[6] ديوان زهير بن أبي سلمى :شرح حمدو طماس ، 71 .
[7] معجم المصطلحات ألعربية في اللغة والادب ، كامل المهندس وجدي وهبة : 117 .
[8] تداخل الفنون في القصيدة العراقية الحديثة ، كريم شغيدل : 199 .

فتأتي الشخصيات في الشعر بأنماط بسيطة لا تنهض كثيراً على الجوهر السيكولوجي للشخصية مثل "الأفكار والمشاعر والانفعالات والعواطف والأحاسيس، وإنما على وحدة الفعل التي تستند اليها في السرد"[9]؛ لأن الشخصية لا تعدّ هدفاً ومقصداً في طبيعة البناء الشعري بل هي تحصيل حاصل لعلاقة الشاعر بقصيدته في المقام الأول، وفي السرد تكون الشخصية عنصراً أصيلاً وفاعلا في تشكيل النص من بدايته إلى نهايته.

ويمثل وصف الملامح الخارجية للشخصية أمراً مهماً جداً في النص الأدبي لأنه يعدّ :" أحد الأركان الرئيسة للتشخيص، وهو تقديم صورة استهلالية كاملة للشخصية عن طريق أحداث تعززها"[10]، وقد يبدو أن رسم ملامح البعد الخارجي للشخصية في الشعر يقوم على تحديد عام، وقد يكون مفصلاً من خلال وصف المظهر الخارجي للجنس والملابس وغيرها[11]، فضلاً عن الهيكل الخارجي والبنية الجسمانية للشخصية المتوافقة مع العمر والاسم الصريح وملامح الوجه، وكلها فعاليات سردية تحتاجها القصة والرواية وكل فنون السرد الأخرى أكثر من حاجة الشعر لها، بما يعكس نوعية خاصة للشخصية الشعرية يمكن أن تلتقي مع الشخصية السردية في بعض عناصرها، وتختلف عنها في عناصر أخرى.

ثالثاً: الحطيئة : اسمه جرول بن أوس بن مالك بن جُؤَيّه بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، والحطيئة لقبٌ غلب عليه فعُرِفَ واشتهر به ، وهو من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، متصرف في فنون الشعر جميعها من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيد في ذلك أجمع، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم، ومات نحو سنة 45 هجرية نحو سنة 665 م.

وكان الحطيئة شاعراً جوالاً يمدح الكرماء، وينتسب إليهم، ويهجو البخلاء هجاءً لاذعاً، ويتبرأ منهم حتى لو كانوا من قبيلته، فهو سلك بذلك مسلك الجاهليين، وامتاز شعره بقوة السبك وتنقيح العبارة، وكان يختار منها ما يتلاءم مع عبقرياته وتفوقه، ولقد استعمل الحوشي والغريب في شعره، حتى أصبح شعره مثالاً يستشهد به اللغويون وأصحاب المعاجم والنحويون والبلاغيون.

لم يكن للحطيئة ملامح تتعلق بشخصيته الإنسانية سوى شعره الذي به ظهرت شخصيته وهابه رؤساء القبائل وأغدق عليه الأغنياء من أموالهم، واشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه خليفة المسلمين أعراضَ المسلمين منه بثلاثة آلاف درهم، لسلاطة لسانه وطبيعة هجائه المقذع بحيث يخافه الجميع، مما يدل على قوة تأثيره من الناحية الاجتماعية والثقافية التي تؤدي إلى محاولة إسكاته وتغييب صوته بشكل أو آخر.

تستطرد كتب الأدب والسيرة في أخبار الحطيئة ومهابة الناس له، فتذكر دخوله على عتيبة بن النهاس العجلي، والنضاح بن أشيم الكلبي، وقدومه المدينة المنورة وترحيب أهلها به، واتصاله بالوليد بن عقبة بن أبي معيط عامل عثمان على الكوفة، وحلوله ضيفاً على سعيد بن العاص عامل معاوية بن أبي سفيان على المدينة الذي قربه ووصله وكساه، ومثله كثير من أصحاب الجاه والسلطة والمال والنفوذ.

هكذا كان الحطيئة مكرماً أنى حلّ وارتحل لا يخاف أحداً ويخافه الجميع ويحسبون حسابه ويتّقون شرّه، يتهافت الأسياد والموسرون على استقباله والترحيب به، وظل كذلك حتى سنة وفاته التي لم تحددها المصادر كما لم تحدد سنة ولادته من قبل، إلا أنها لم تكن في نهاية خلافة عمر (رضي الله عنه) كما يزعم بعضهم.

تدل أشعاره على أن العمر قد امتد به إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان الذي عين سعيد بن العاص والياً على المدينة، ومدحه الحطيئة وهو عليها من قبله، وهذا ما يوضح أنه قد أدرك هذا العهد[12] ولقد لقي الحطيئة اهتماماً لائقاً في الأوساط الأدبية، ومنزلة رفيعة يستحقها، وخصصت له المصادر مكاناً يتناسب وأهمية تلك الشخصية الفذة التي تبوأت منزلة رفيعة وأصبح الشعر جوهر ملامحه والعلامة الدالة على شخصيته، وهذا ما حدا بابن سلام الجمحي أن يجعله في الطبقة الثانية مقروناً بكعب بن زهير الذي كانت تربطه به صلة الانتماء الى ذلك البيت الشعري المعروف، والحقيقة أن ابن سلام لم يبخس الرجل منزلته الشعرية، فأنزله حيث يستحق، وقال عنه:" وكان الحطيئة متين الشعر، شرود القافية "[13].

---

[9] ينظر : ملامح السرد في خمريات ابي نؤاس ، حسين احمد علي ، رسالة ماجستير ، بأشراف : د .سالم محمد ذنون ، كلية التربية / جامعة الموصل ، 2012 ، 22.

[10] البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، د، عبدالله إبراهيم ، 87 .

[11] ينظر : النقد الادبي ، أحمد امين :1 /128 .

[12] ينظر : طبقات الشعراء ، ص111، النقد الأدبي ايليا سليم الحاوي، ص30 : الحطيئة ، ص18 ، دار الشرق بيروت .

[13] طبقات الشعراء ، ص49.

عاب عليه بعضهم جشعه وإلحاحه بالسؤال، ومما يبدو في سيرته أنه كان ذا عيال وفقر مهلك ما جعله يلح بالسؤال وليس جشعاً، أما صاحب الجمهرة فقد جعله مع أصحاب المشوبات وهن القصائد الآتي شابهن الكفر في الإسلام، وقرنه بالنابغة الجعدي وكعب بن زهير والقطامي والشماخ، وعمرو بن أحمد وابن مقبل[14].

أفرد له صاحب الأغاني ترجمة وافية في كتابه، وقدمه بالقول: "وهو من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد في ذلك اجمع "[15]، أما ابن رشيق القيرواني فقد جعله شاهداً على حسن كلام العرب، وإلى ما بلغه شعرهم من فصاحة وإتقان، فقال: والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، ومعنىً لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكنّ نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدّوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض ونجح في تشكيله على النحو المناسب في قوله[16]:

فــلا وأبيــك مــا ظلمــت قريــع بــأن يبنــوا المكــارم حيــث شــاءوا
ولا وأبيــك مــا ظلمــت قريــع ولا عنفــوا بــذاك ولا أســاءوا
بعشــرة جــارهم أن ينعشــوها فيعشــر بعــدها نعــم وشــاءُ
فيبنــي مجــدها ويقــيم فيهــا ويمشــي إن أريــد بــه المشــاءُ
وإنَّ الجــار مثــلُ الضــيف يعــدو لوجهتــه وإن طــال التــواء
وإنّــي قــد علقــت بحبــل قــومٍ أعــانهم علــى الحســب الثّــراءُ

أما عمرو بن العلاء فيقول: لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة في معيار نقدي أخلاقي ينظر إلى صدق المعنى وقيمته:

من يفعل الخير لا يعدم جَوازِيَهُ لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

ثم يضيف: وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن، إلا قول الحطيئة "هذا"[17]، وقد أدرك أصحاب الدراية في الشعر متانة شعر الحطيئة وجزالته، فقال أبو صفوان الاحوزي: ما من أحد إلا لو أشاء أن أجد في شعره مطعناً لوجدته إلا الحطيئة، وقال حمّاد: وسمعت أبي يقول، وقد أنشد قول الحطيئة:

وفتيان صدقٍ من عديٍّ عليهم صفائح بُصرى علّقت بالعوائق

إلى آخر الأبيات: أمّا أني ما أزعم أن أحداً بعد زهير أشعر من الحطيئة [18]، وعرف الشعراء في هذا المضمار قدره وعظّموه، فهذا كثيّر عزّة يجيب حين سأله أحدهم فقال: يا أبا صخر، قال: ما تشاء، قلت: من أشعر الناس، قال: الذي يقول:

وآثرت إدلاجي على ليل حرّةٍ هضيم الحشا حسّانة المتجرّد

تُفرّقُ بالمذرى أثيثاً نباته على وصح الذفري أسيلِ المقلّد

قال: "قلت هذا الحطيئة قال: هو ذاك "[19]، وكان الفرزدق يقدّم الحطيئة ويعترف له بالنبوغ في مناسبات كثيرة مع شدّة اعتزازه بنفسه وشعره، ويجعله واحداً من الشعراء الذين تأثر بهم واستلهم شعرهم فقد قال [20]:

وهب القصائد لي النوابغُ اذ مضَوا وأبو اليزيدَ وذو القروح وجرولُ

نختم آراء الأقدمين في شعر الحطيئة برأي الأصمعي الذي قال: وما تشاء أن تقول في شعر شاعرٍ من عيبٍ إلا وجدته، وقلّما تجد ذلك في شعره [21]، تعبيراً عمّا احتلته هذه الشخصية الشعرية من مكانة رفيعة في تاريخ الشعرية العربية القديمة.

أما آراء المحدثين فهي كثيرة ولكننا سنكتفي بواحدٍ منها على سبيل الايجاز، ذلك هو رأي الدكتور طه حسين، بعد أن يستعرض قصيدة الحطيئة في مدح علقمة بن علاته ينتهي الى القول: "فإني أرى في هذه الأبيات جزالةً وصلابة ومتانة وارتفاعاً، وأجد فيها

---

[14] جمهرة اشعار العرب ، ص106 ،دار الكتب العلمية .
[15] الأغاني، 149/2 .
[16] العمدة ، 95/1.
[17] الأغاني ، 166/2.
[18] الأغاني ، 166/1–167 .
[19] الأغاني ، 192/1 -193 .
[20] ينظر: ديوان الحطيئة ،273 .
[21] الأغاني : 175/1 .

جمالاً لا أعرف كيف أصوره، ولكنه يملك عليَّ أمري، ولو أنني أطعت نفسي لقلت: إني أجد في هذه الأبيات رجولة الشعر"[22]، للدلالة على القيمة الاعتبارية والفنية والجمالية التي كان يتمتّع بها شعره.

لا بدّ بعد هذا المسح لآراء القدماء والمحدثين عن شخصية الحطيئة وشعره أن نذكر رأي الحطيئة في نفسه وشاعريته، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، قال: رأيت الحطيئة بذات عرق، فقلت له: يا أبا مليكة، أي الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حيةٍ، فقال: "هذا إذا طمع" [23]. والتقى الحطيئة ابن عباس فسأله من أشعر الناس؟ فذكر أبا داؤود الايادي وزهير بن أبي سلمى ثم النابغة فيقول عنه: ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جروله، ولولا الجشع لكنت أشعر الماضين، وأما الباقون، فلا شكّ أني أشعرهم، فقال أبن عباس: أنت كذلك يا أبا مليكة" [24]

هذه هي الجوانب البارزة في ملامح شخصية الحطيئة التاريخية والأدبية والاجتماعية التي تظهر أن الرجل كان يتمتع بشخصية قوية، وإرادة صلبة وموهبة فذة، كما تظهر قدرته على المقاومة والصمود والانتصار، إذ استطاع أن يحقق بالموهبة ما لم يستطع غيره أن يحققه بشرف المحتد واعتدال القوام، فسطر نفسه في سجل الشعراء الخالدين.

لم تبق الا مسألة واحدة أحببنا أن نفرد لها حديثاً منفصلاً عن جوانب شخصيته، ألا وهي مسألة إسلامه ومدى تأثره بالدين الحنيف، فالمعروف أن الحطيئة عاش في الجاهلية دهراً لا يعرف أمده، وأدرك الإسلام وأسلم وعاش فيه مدة طويلة قيل: إنها بلغت أيام معاوية، ويبدو لنا أن الحطيئة لم يكن من شعراء الدعوة ولا من الشعراء المجاهدين ولا حتى من المقربين الى رجالات السلطة، بل كان يريد بشعره انتشال أسرته من الفقر وسمعته من براثين المغمزين بها، وفي الوقت نفسه رأينا تأثره بالإسلام وألفاظ القرآن كقوله:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنّ التقيّ هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

ولو أردنا أن نورد كل الأدلة على تأثره بالدين الحنيف والقرآن المجيد لخرجنا عن عنوان البحث ومساره، وسنشير إليها من خلال تحليل بعض النصوص الشعرية له، ولم نجدها في أغراض شعره جميعاً، ولا يوجد دليل واضح على ردته ولا قرينة تشير إلى أن الرجل قد ارتدَّ عن الإسلام ولو حصل هذا الأمر لأقيم عليه الحد وانجلى أمره، ولكن لم ينكشف في زمانه فكيف انكشف للنقاد فيما بعد؟

إنّ هذا السؤال ربما يكون على المستوى العقيدي سؤالاً مهماً يحتاج إلى مزيد من الاستقصاء في شعره وتحليله وتأويله، للوصول إلى عتبة نقدية يمكن أن تحسم هذا الأمر بشكل واضح وقائم على النظر العميق في تجربته الشعرية، ولا شكّ في أنّ النقد الآن يقوم على النظريات النقدية والاستقراء التحليلي والتأويلي للنصوص الشعرية، بحيث لا يتحدث الباحث والناقد اعتماداً على الظن والتخمين وتصديق الروايات غير المحققة، بل يقدم مجموعة من الفرضيات النقدية ويحاول البرهنة عليها من خلال النصوص الشعرية التي هي أفضل من يمثّل شخصية الشاعر.

المبحث الأول : الأنا الشاعرة

ترتبط الأنا الشاعرة بالشاعر ارتباطاً وثيقاً وتصميميا من حيث الانتماء والصورة والفعل الشعري، فالقصيدة العربية في مضمونها الفني الأصيل هي قصيدة غنائية تمنح الذات القدر الأعلى من قوة الحضور داخل المشهد الشعري، فغالباً ما يعبّر الشاعر عن قضايا ذاتية محضّة لها علاقة أكيدة بتجربته حين تكون (أناه) هي الجوهر المحرك للغة الشعرية والصورة الشعرية في سياق إعطاء هذه الأنا المساحة الشعرية الكبرى لكي تقدم ذاتها وتلوّن اللغة الشعرية بما تشعر به وتحسّه من عواطف وانفعالات وأخيلة.

تتجسد الأنا الشاعرة في لغة القصيدة أولاً بواسطة الانفعالات الشعرية التي تنتمي لهذه الذات فضلاً عن الأمكنة والأزمنة، وكل ما يتعلق بسيرة هذه الأنا المهيمنة على الحراك الشعري في القصيدة العربية من البداية إلى النهاية، وتتمثل بصيغ وأشكال فنية متعددة كي تكون قادرة على الانتقال من الواقع الحقيقي في الحياة إلى الواقع التخيلي في القصيدة كي يتفاعل الواقع مع الخيال في بناء قصيدة تعبر عن الأنا الشاعرة وعن المحيط الشعري في وقت واحدٍ، فلا يمكن للقصيدة أن تكون واقعاً صرفاً ولا خيالاً صرفاً أبداً.

لا يمكن للشاعر العربي أن يهمل أناه الشاعرة في بناء أية قصيدة له حتى وإن كان يريد معالجة قضية موضوعية لا تتعلق بشخصه، فهو حين يمدح الآخر نجد أناه حاضرة، وحين يهجو وحين يتغزل، وحين يرثي وحين يقف على الأطلال وحين يناجي، ولا يمكنه الاستغناء عن ذاته في لغته الشعرية وصوره الشعرية التي هي نتاج ذاته الإبداعية.

---

[22] حديث الأربعاء :144/1 ،دار المعارف بمصر

[23] الشعر والشعراء : 200 .

[24] الأغاني: 154/1 .

إنّ الأنا الشاعرة هي جوهر البناء الشعري في القصيدة العربية ولا بدّ من النظر الى هذه الأنا بوصفها المحرّك الأساس للقصيدة، فهي حاضرة وذات تأثير عميق في هذه القصيدة على مستوى التعبير والتشكيل من جهة، وعلى مستوى بناء الصور الجمالية وإنتاج الدلالات العميقة التي تعبرّ عن القضية التي يريد الشاعر صياغتها فنياً في قصيدته من جهة أخرى.

قال الحطيئة: وهو يمدح "بني أنف الناقة" وهو لقب لهم [25]

ألا أبلـــغَ بنـــي عـــوف بـــن كعـــب ... فهـــل قـــوم علـــى خلـــق ســـواءُ
عطارهـــا وبهدلـــة بـــن عـــوف ... فهـــل يشـــفي صـــدورَكُمُ الشـــفاء
ألـــم أك نائيـــاً فـــدعوتموني ... فجـــاء بـــي المواعـــدُ والـــدَّعاء
أجيـــل علـــى الخبـــاء بـــبطن قـــوٍّ ... نبـــاتِ الليـــل فاحتمِـــلَ الخُبـــاء
وآنيـــت العشـــاء إلـــى ســـهيل ... أو الشّـــعرى فطـــال بـــي الأنـــاء
فلمّـــا كنـــتُ جـــاركُمُ أبيـــتم ... وشـــرُّ مـــواطن الحَسَـــب الإبـــاء

هذه قصيدة متكونة من ثلاثة وخمسين بيتاً يمدح فيها الحطيئة بني أنف الناقة في كرمهم وحسن ضيافتهم، وقد تجلت فيها كل ملامح الشخصية الشعرية إذ إن الشاعر جعل أناه المحرك الأبرز لهذه القصيدة، على مستوى التأثير والتعبير وبناء أبياته جميعها؛ إذ ابتدأها بهجاء الزبرقان بن بدر عندما استضافه، ولم تكن ضيافته على النحو الذي يتطابق والتعاليم القبلية والعربية المعروفة والمتداولة، فضلاً عن التعاليم الإسلامية التي أقرّتها تقاليد الدين الحنيف في الكرم وشيم الضيافة وحسن الجوار.

استهل قصيدته بالهجاء ليضع مقارنة بين ضيافة الزبرقان وحسن ضيافة بني عوف وكنيتهم بنو أنف الناقة، فاستهل بالهجاء ليزيد في المدح عندما تتضح الصورتان ــ الكرم والبخل وحسن الضيافة وسوء المعاملة ــ، إذ تتضح شخصيتان أمام الأنا الشاعرة وما آلت إليه من سوء المعاملة من المهجو وحسن المعاملة من الممدوح، وعلى هذه الحقيقة يبني مقارنته بين ضدين لا تقارب بينهما في الأخلاق والمعاملة، فكان استهلاله في غاية من التشكيل والجمال الصوري ومن اللافت أن مثل هكذا استهلال دقيق وعميق، يوحي بالحكمة والموهبة الشعرية التي لا تتوفر إلا في مدرسة زهير وكعب وشاعرنا المخضرم.

ويستطرد قائلاً:

ولمّا كنتُ جارهُمُ حبوني ... وفيكم كان ـ لو شئتم ـ حباءُ
ولمّا أن مدحت القوم قلتم ... هجوت ولا يحل لك الهجاء
ألم أك مسلماً فيكون بيني ... وبينكُمُ المودة و الاخاء
فلم أشتم لكم حسباً ولكن ... حدوت بحيث يُستمعُ الحُداء
فلا وأبيك ما ظلمت قَريعٌ ... بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قريعٌ ... ولا برموا بذاك ولا أساؤا

وها هو يدخل في فحوى الموضوع بعد الهجاء فيذكر ممدوحيه وخصالهم ومزاياهم من العطايا وحسن الضيافة وكذلك حسن الجيرة، وكل ما فعلوا هو لم يأمرهم به ولكن أملت عليهم صفاتهم النبيلة كي يجعلوا الأشياء في نصابها، ولأنه يستحق ذلك وهو أهلٌ له، ويستأنف القول ولا ينسى المفارقة والإشارة الى مهجو من قبل ذاكراً براءته وظلمهم له وعدم وضعهم الأمور في نصابها، وعدم القيام بمراعاة إنسانيته وحقوقه الإسلامية التي تعطي الضيف والجار أعظم الحقوق.

ولذلك قيل بأن هذا البيت: (فلم أشتم لكم حسباً...) كان أشدّ على الزبرقان من البيت القائل: (دع المكارم ...) فنجد أنّ (الأنا الشاعرة) كيف تجر القصيدة برمتها إلى نفسها من حيث العطايا وعدم الانصاف معها على الرغم من براءتها إزاء المهجو، ثم انصافها من قبل الممدوح فتكون الأنا الشاعرة هي المحور الأساس الذي يريد الشاعر صياغته فنياً في لغته الشعرية.

وإنـــي قـــد علقـــت بحبـــل قـــومٍ ... أعـــاتُهُم علـــى الحســـب الثـــراء
هـــم المتضـــمنون علـــى المنايـــا ... بمـــال الجـــار ذلكُـــمُ الوفـــاء
إذا نـــزل الشـــتاء بجـــار قـــوم ... تجنّـــب جـــار بيـــتهُم الشـــتاء

[25] ديوان الحطيئة : برواية وشرح أبن السكيت ،دراسة وتبويب : د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، ط1 سنة 1413 هجرية المصادف 1993 م ، صفحة 31–38 .

ولمـــا ان دعـــوت أخـــي بغيضـــاً أتـــاني حيـــث اســـمعه الـــدعاء

ويحلـــف حلفـــة لبنـــي بنيـــه لأمســـوا مُعطِشـــين وهـــم رواء

تبدو ملامح شخصية الحطيئة واضحة جلية في شعره والانا الشعرية أكثر حضوراً في شعره، إذ إنه يمدح ويبالغ في المدح عندما يجد الممدوح يستحق ذلك، ويهجو ويؤذي المهجو عندما يجد أنه يستحق ذلك أيضاً، فهذا نراه من الانصاف ولو كان دنيئاً كما يزعم النقاد لما هجا أحداً طمعاً إليه في قابل الأيام ، بل كان يستخدم المدح في حالات الاستجداء جميعها، ولكنه كان يهجو أصحاب الصفات السيئة ويجعلهم يخافون منه ومن لسانه ويطلبون العفو منه، فنجده يكره ويذم صفة البخل ويجعل البخيل لا نسب له ولا حسب ولا دين، بل يراه ظالماً وفي الوقت نفسه يرمز لأناه الفقر ويجعل لنفسه حقاً معلوماً في مال الغني الذي فرضه له الدين، بمعنى أن الأنا الشاعرة هنا حاضرة بدلالة قوة الحضور في تشخيص الحالة الشعرية وتوفير فرصة تجليها على النحو المطلوب، من حيث الصورة التي يريد الشاعر رسمها لهذه الأنا في قدرتها على فرض ذاتها مهما كانت الحالة ومهما كانت طبيعة الصورة.

إن أي حرمان لهذا الحق يراه ظلماً ويمدح ويمجد الكريم لعطائه، ونراه أيضاً لا يمدح ولا يهجو إلا بعد إظهار الصفتين الرئيستين المعروفتين في هذا السياق وهما: ـ الكرم والبخل ـ، وهذا دليل آخر على عدم انصاف النقاد له عندما وصفوه بالخوض في أعراض المسلمين، وهم تناسوا بأن هاتين الصفتين هما مثار جدل واسع في الدين، فصفة الكرم صفة محمودة عند الرجل العربي والكرم صنو الشجاعة والحسب والنسب وحسن السيرة وعلو الشأن، وهذه المزايا كانت متأصلة لدى الرجل العربي في العصر الجاهلي وموضع فخر وعز، ولما جاء الإسلام أقرها وجعلها من ملامح شخصيته، ولعلّ ما ثبت عن رسول الله ﷺ في سيرته أنه كان كريماً وشجاعاً وذا حسب ونسب، فكان أعداؤه يصفونه بأنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان من أذكاره "ﷺ "صباحاً ومساءً (اللهم أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال)[26]على النحو الذي يجعل من هذه الملامح صفات ذاتية يفخر بها الشاعر العربي بوصفها مثار عناية كبيرة من الأنا الشاعرة، التي تسعى إلى توكيد هذه الصفات ونشرها والدفاع عنها في الشعر.

نجد أن الحطيئة ينطلق من شيم عربية وإسلامية معروفة وأصيلة، فيصب جام غضبه على البخلاء الذين يبخلون بحق الضيافة والجيرة والفقراء، إذ يرى نفسه رمزاً لهؤلاء الفقراء حين تتحول أناه الشعرية إلى أنا جمعية تمثّل هؤلاء الفقراء وتدافع عن مصيرهم في الحياة، ويتعجب من البخيل ويصفه بشتى أنواع الصفات السيئة وفي الوقت نفسه لم نرَ تضارباً في ديوانه أنه مدح شخصاً تارةً ثم هجاه تارةً أخرى، بل رأينا أنه كان يمدح الرجل لكرمه وعلو صفاته وشجاعته، ويهجو الرجل لصفاته السيئة الذميمة على طول الديوان.

هكذا نجد الحطيئة يمدح عمرو بن عامر فيقول :[27]

يعـيش النّـدى مـا عـاش عمـرو بـنُ عـامرٍ وولّـــى النـــدى إن نفـــس عمـــروٍ تولـــت

حَليـــف النّـــدى لمَّـــا تـــولّى خـــلا النـــدى فماتـــت عطايـــا المكثـــرين وقلّـــتِ

تـــوارى النّـــدى لمَّـــا تـــوارتْ عِظامُـــهُ فـــأعظم بهـــا فـــي المعتقـــين وجلّـــت

فلـــولا بقايـــا مـــن بنيـــه وَرَهْطِـــهِ لهانـــتْ وُجـــوهٌ مـــن ثقيـــفٍ وذلّـــتِ

نجد الحطيئة هنا يرثي ممدوحه بصورة الحي ويريد بذلك وضع الصفة مكان الموصوف، وكأنه يقول إن الكريم لا يموت، وإذا مات الكريم مات الكرم أو قلّ، ويجعل ممدوحه فريداً في صفته والصفة موكلة به، وإذا اختفى يختفي الكرم والبذل والعطاء ثم يحيي الصفة ويعم المدح ليشمل أبناءه وعشيرته وكل من ينتمي إليهم.

نجد في هذه الأبيات أن الشاعر عندما يرثي الممدوح فإنّما هي كناية على أنه قد نال من هذه العطايا الشيء الكثير، ثم يحفّز أولاد الممدوح وعشيرته على المحافظة على هذه العلاقة الحميمية التي كانت بين الشاعر والممدوح، في توكيد لحضور الأنا الشاعرة بوصفها صاحبة المصلحة الحقيقية في الحصول على الهبات والأعطيات.

برزت "الأنا الشاعرة "على وجه الحقيقة والخيال في معرفة ملامح شخصية الشاعر وصفاته الخلقية والذاتية والاجتماعية؛ لأن الشاعر كما رأيناه ووصفه النقاد بأنه لا يمدح إلا إذا نال شيئاً ولا يهجو إلا لسبب مقنع، ورأيناه في سياق الهجاء ولم نذكره هروباً من الإطالة ، قد هجى أمه وزوجته ونفسه وأعطيناه الحق في ذلك لأن أمه قد جلبت له العار، وزوجته التي لم ترفع منزلته، وحتى شكله الذي لم يرضَ به أحد بوصفه شاعراً، وهو بأمس الحاجة الى كل هذه المقومات ليعادل موهبته ومستواه الفني، ولذلك وجب عنده الهجاء لعدم موازنته مع المضمون الداخلي للانا، ولكنه استطاع أن يرتقي بشخصيته العلمية والفنية والأدبية وموهبته الشعرية التي لا

[26]صحيح البخاري (6369) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[27] الديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن سكيت،58 .

يشق لها غبار، بالرغم من المعوقات الخارجية التي تحاول أن تحدّ من قوة حضور أناه في الظاهرة الشعرية، وبلا شك فإن هذا الحضور لأناه الشعرية على هذا النحو قد كلفه جهوداً مضاعفة لبلوغ ما يريد، وقد تأثرت نفسيته كثيراً مما دفعه الى هجائها وجعلها رمزاً للفخر بنفسه، وشخصيته التي استطاع أن ينتشلها من مستنقع اللمز والهمز والمعايب إلى أعلى المراتب، فضلاً عن المكانة المرموقة حيث كان يجالس الأمراء والحكماء، وقد تخرج شعرياً في مدرسة زهير حكيم الشعراء ليكون بمنزلة بجير وكعب بني زهير.

قال الحطيئة في الحكمة :[28]

من يزرع الخير يحصد ما يسر به وزارع الشر منكوس على الرَّاس

بيت الحكمة هذا يحوي كل المعاني ويحثّ الناس على المسارعة في الامتثال به لنيل المسرة والعزة والسؤدد والنجاة من الذل ونكوص الرأس، وهو يريد بذلك الانضمام إلى رعيل الكرماء الذين ينفقون بلا حدود، فأنا الشاعر تبقى لهم بالمرصاد، فمن ينفق يحصد ثناءً ومدحاً يسر به ومن يبخل فلينتظر وابلاً من الهجاء والذم والشتيمة على لسان الحطيئة فحل الشعراء وزعيم البلغاء، فبمثل هذا البيت وغيره شقّ طريقه وواكب سيره نحو أعلى المراتب وأسمى الغايات، فحسبه من ذلك أنه خلَّد نفسه وجعل شعره سيفاً بتاراً يقاتل به أعداءه، وفي الوقت نفسه جعله مناراً وحجة لأصحاب المعاجم والمفسرين والبلغاء وأصحاب السير، وهو في هذا وذاك إنّما يؤكّد قوة حضور أناه الشاعرة في كل مفصل من مفاصل قضاياه الشعرية.

وإذا انتقلنا إلى غزله الذي يعكس الجانب الآخر من شخصيته سنجده يمثل أناه الشعرية خير تمثيل بلا حواجز ولا مصدّات، وهو الجانب المخبوء الذي أهمله النقاد قديماً ولم يسلطوا الأضواء عليه لكي يصدق الناس قولهم على أنّ الحطيئة كان فظاً غليظ القلب سيء المعشر والمشاعر والكلام، كم هو جميل على الناقد ان يدرس شخصية الشاعر وأعماله الصادرة عن ظروفه الحياتية جميعها، ولا يهمل الجوانب السياسية والاجتماعية والدينية المحيطة به لأنّها تمثل جميعاً جوهر أناه الشعرية، إذ إن شخصية الحطيئة أشبه ما تكون بأسطورة خيالية تتغلب على أقوى المثبطات التي التصقت بشخصيته بناءً على عوامل كثيرة، فيبدو أن هناك كثيرا من الحقائق أشد وأغرب من الخيال، فقد تجلّت أناه الشعرية استناداً إلى جملة عوامل ذاتية وموضوعية صاغت شخصيته في التراث الشعري العربي على هذا النحو.

يقول الحطيئة: [29]

ألا طرقـــــت هنـــــدُ الهنـــــود وصـــــحبتي

بحـــــوران حـــــوران الجنـــــود هجـــــودُ

فلـــــم تـــــر إلا فتيـــــة ورحـــــالهم

وجـــــرداً علـــــى أثبـــــاجهنَّ لبـــــودُ

وكـــــم دون هنـــــد مـــــن عـــــدو وبلـــــدة

بهـــــا للعتـــــاق الناجيـــــات بريـــــد

وخـــــرق يجـــــر القـــــوم أن ينطقـــــوا بـــــه

وتمشـــــي بـــــه الوجنـــــاء وهـــــي لهيـــــد

كـــــأن لـــــم تقـــــم أظعـــــن هنـــــد بملتـــــوى

ولـــــم تـــــرع فـــــي الحـــــيِ الحـــــلال ثـــــرود

ولـــــم تحتـــــل جنبـــــي أثـــــال الـــــى المـــــلا

ولـــــم تـــــرع قـــــوًّا حـــــذيمٌ وأســـــيد

بهـــــا العـــــين يحفـــــون الرَّخـــــامى كأنهـــــا

نصـــــارى علـــــى حـــــين الصـــــلاة ســـــجود

إذا حـــــدثت أن الـــــذي بـــــي قـــــاتلي

مـــــن الحـــــب قالـــــت ثابـــــت ويزيـــــد

---

[28] الديوان ، 123 .

[29] الديوان ، 73–75 .

إذا مـــــا نـــــأت كانـــــت لقلبـــــي علاقـــــة

وفـــــي الحـــــي عنهـــــا هجـــــرة وصـــــدود

سخون الشتاء يدفئ القرُّ مسها

وفـــــي الصـــــيف جمّـــــاء العظـــــام بـــــرود

عبيـــــرٌ ومســـــكٌ آخـــــرَ الليـــــل نشـــــرُها

بـــــه بعـــــد عِـــــلّات البخيـــــلِ تجـــــودُ

تـــــذكَّرتُ هنـــــداً فـــــالفؤادُ عميـــــدُ

وشـــــطّتْ نواهـــــا فـــــالمزارُ بعيـــــدُ

تـــــذكَّرتها فـــــارفضَّ دمعـــــي كأنّـــــهُ

نثيـــــرُ جُمـــــانٍ بيـــــنهنَّ فريـــــدُ

غَفـــــولٌ فـــــلا تُخشـــــى غوائـــــلُ شـــــرَّها

عـــــنِ الـــــزّاد ميســـــانُ العشـــــيّ رقـــــودُ

تكشف هذه الأبيات عن ملامح شخصية الشاعر من حيث الرقة والتوجّع وصدق المشاعر تجاه حبيبته، بأرقّ الكلمات وأدق أشكال التعابير الغزلية التي لم نسمعها من الحطيئة لأمور سبق ذكرها، فإن الإحساس وقوة رباطة الجأش وفضاء الذاتية الشعرية الذي عهدناه عند شاعرنا في الهجاء والمدح يتجلى في هذا الوضع أيضاً، ولكن بطريقة مغايرة تماماً مليئة بالرقة والإحساس والتعطش إلى محبوبته التي يناديها بهند الهنود كالطفل الذي يكرر الكلمات براءة إخلاصا وحباً.

نجد(الأنا الشاعرة) تتسم هنا بالحضور والهيمنة في الأبيات جميعها التي تحيل على جوهر هذه الذات، عندما يذكر طيفها الذي ألمّ به وهو بعيد عنها وعن ديارها فتشتاق روحه لها، فراح يتمثله في هند ولقائها وحديثها وشخصها الذي ليس باستطاعته ان يبتعد عنه وحيها وذكراها؛ لأن البعد يورث الألم ويجعله يتوجع ويتلهف، وهذا يدل على صدق العاطفة وليس من وراء ذلك أي تكسب سوى إشباع حنينه الذاتي ووجده وإخلاصه وكل مقومات العشق البريء، وراحة الهوى التي تحصل لدى أصحاب العواطف النبيلة بعيدة كل البعد عن أصحاب المكاسب الدنيا والواقع المزري الذي يتطلّب التضحية بعزّة النفس وقوّة حضور الأنا الشاعرة.

يرسم الشاعر لها صوراً حملتها إليه الذكريات المخزونة في عقله الباطني وذاته الشعرية العميقة، لتحمل إليه حلاوة الصبا وطلاوة الربيع في أجمل لحظاته الوجدانية، فينقله من جفاف الفعل إلى رقة الحلم وصفاء السريرة وتألق الأنا الشاعرة، فيخفف عنه ضنك الحياة وغربة الفيافي وهو يجنّد ذاته الشاعرة للبحث عن خيالها في ذاته.

إن الحطيئة في هذا النداء الروحي لا يتمالك نفسه عن التصريح بالحب القاتل، الحب الذي نراه متبادلاً بينه وبين هند في أعلى درجاته، بل ونراه ثابتاً غير متبدل أو متحول وكأنّهما ذات واحدة، فيزداد رسوخاً وتصاعداً في وجدانه العاطفي وشوقه المستميت، وتهب أنسامه ملوّنة بأريج هند وعطرها وذكراها، فتحمل إلى نفسه العذبة عبقاً خاصاً ينغرز في أعماق ذاته الشاعرة، عبقاً لا يحمل منةً ولا أذى بل يتعزّز بمزيد من العطاء والبهجة؛ لأنه عبق طبيعي يفيض كما تفيض مياه النهر معمقةً المجرى وسرعة الجريان وعذوبة البرودة، التي تجعل الزهور في ربيعها الدائم تحمل الشذى إلى القلب المجهد العاشق والأنا التي تبحث عن ملاذ، فيحسّ أُنساً بعد وحشة وأمناً بعد خوف من أجل بلوغ وجه الحبيبة، وتنهمر دموع في المآقي استذكاراً لهذا الحب وبحثاً عن آثاره في المحيط، دموع العشق والحنان والإخلاص والذكريات الجميلة تروي القلب والروح معاً وتزيد من الوجد وتجدد الحياة وتعزز حضور الأنا الشاعرة في القصيدة.

وقال الحطيئة في الغزل أيضاً:[30]

آثـــــرت إدلاجـــــي علـــــى ليـــــل حـــــرةٍ

هضـــــيم الحشـــــى حســـــانة المتجـــــرد

إذا النـــــوم ألهاهـــــا عـــــن الـــــزاد خلتهـــــا

بعيـــــد الكـــــرى باتـــــت علـــــى طـــــيّ مجســـــد

إذا ارتفقـــــت فـــــوق الفـــــراش حســـــبتها

[30]الديوان ، 62–70 .

تخـــاف انبتـــات الخصـــر مـــا لـــم تشـــدَّدِ

وتضـــحي غَضـــيض الطـــرف دونـــي كأنّمـــا

تضـــمَّن عينيهـــا قـــذىً غيـــرُ مفســـدِ

لهـــا طيـــبُ ربَّـــى إنْ تـــأتني وإن دنـــت

دنـــت عبلـــة فـــوق الفـــراش الممهَّـــدِ

خميصـــة مـــا تحـــت النِّطـــاق كأنّهـــا

عســـيبُ نمـــا فـــي ناضـــرٍ لـــم يخضَّـــدِ

وفـــي كـــلِّ مُمســـى ليلـــةٍ أو مُعـــرَّسٍ

خيـــالٌ يُـــوافي الرَّكـــب مـــن أمِّ معبـــدِ

إن الشاعر يصف الفتاة بصفات بارعة الجمال، من ضمور البطن ودقة الخصر وعدم فتح العينين على نحو كامل لحيائها ورائحتها التي تتمثل بأجمل رائحة في الكون، ثم يدخل في خلجات قلبها ويكشف عن جاذبيتها التي تجعل من العاشق لا يفارقها حقيقة ولا خيالاً، بل يتقلّب في فراشه ليلاً ونهاراً ويصفها بعبلة معشوقة عنترة التي حفلت بها كتب الأدب والشعر والتاريخ، فهذه الأوصاف برقتها وجمالها تصدر من شاعر قد قست عليه كل عوامل الطبيعة والتاريخ، فضلاً عن ملامح الصورة الشخصية التي من شأنها أن تثبط عزيمة أقوى انفجار في عالم الأدب معززة بالقريحة الشعرية والموهبة التي تتنشط بالمكان، الزمان، والجمال، والصورة، وارتياح النفس، التي حُرمَ شاعرنا من أبسط أنواعها.

فرض الشاعر بمقدرته الجبارة أناه الشعرية على محيطه الشعري من الجهات كلها، وباطنه الذي تغلّب على ظاهره إذ نجده يترنم ويتغزل بشخصيته الشعرية فقط، ويظهر الأنا الشاعرة فوق كل الاعتبارات، ويكسر أفق التوقع لدى المتلقي ليوهمه ويلهيه عما يدور في ذهنه من المثبطات التي هي موضع همز وسخرية، بل تجعله يتصارع مع الكلمات ويعيش في جو الخيال ويفتح شفرات الرسوم لينسى أو ينقد كل التقاليد البائدة القديمة، التي هي جوهر التفاضل لدى العصر الجاهلي ورجالاته أسرى التقليد والعرف والعادات التي ذهبت أمام ملامح شخصية الحطيئة في مهب الريح وهباءً منثوراً، لتكون الأنا الشاعرة مثار عنايته الشعرية على الأصعدة كافة بوصفها محور العملية الشعرية وبؤرتها، في السبيل إلى تقديم هذه الأنا كي تكون الآلة القادرة على تحريك الفعالية الشعرية مهما كان موضوعها، كي تعبّر عن جوهر التجربة الشعرية بما تنطوي عليه من دلالات ومعانٍ ورموز متعددة ومتنوعة.

المبحث الثاني : دور الأنا في الحدث الشعري

تعتمد القصيدة العربية منذ نشأتها وارتباطها بالعاطفة والخيال والواقع على فعالية "الأنوية" التي ترتبط بشخصية الشاعر وتمثّل تجربته في الحياة، وبما أنّ الحدث الشعري هو جوهر التجربة الشعرية في القصيدة العربية ، فلا بدّ أن تكون الأنا الشاعرة صاحبة الحظوة البارزة في حضورها لما تنطوي عليه من دور مركزي في هذا الموضوع ، إذ لا توجد قصيدة بلا حدث شعري مهما كان هذا الحدث محدوداً بحسب طبيعة تجربة القصيدة وموضوعها، فثمة موضوعات شعرية في أغراض شعرية تقتضي وجود حدث معيّن يرسم صورة التجربة الشعرية ويعبّر عن أنا الشاعر، ففي غرض الغزل لا بد من حضور موضوع الحب ، وفي غرض المديح لا بد من حضور حدث العلاقة بين الأنا والآخر الممدوح ، وكذلك الحال في كل الأغراض الأخرى فيتنوع الحدث الشعري بتنوع الغرض وطريقة تعبير أنا الشاعر عنه.

لا يمكن النظر إلى القصيدة في كل حالاتها وأغراضها من دون أن نرى فيها حدثا شعريا معينا، فالحدث الشعري هو الذي يمنح القصيدة كينونتها السردية المطلوبة لأنّها بلا حدث تبقى ناقصة وبعيدة عن الفهم ، لذا نجد أن الأنا الشاعرة هي أداة الشاعر في التعبير عن فلسفة الشاعر داخل هذا الحدث ، فطريقة إدارة الحدث الشعري فنيا وجماليا هي التي تمثل أسلوب الأنا الشاعرة في الوصول إلى فضاء التشكيل والتعبير الشعريين، إذ إنّ الأنا تعبّر عن الشخصية الرئيسة للحدث الشعري حين تكون شخصية مشاركة بالحدث أو مراقِبة له ، وبحسب طبيعة التجربة الشعرية التي تعبر عنها القصيدة.

الأنا الشاعرة تعمل في فضاء القصيدة من خلال الحدث الشعري الذي يوفر لها مساحة للدخول إلى ميدان التجربة ، حين تتحول هذه الأنا إلى شخصية فاعلة ومؤثرة في توجيه طبقات الحدث الشعري بما يناسب دورها مع الشخصيات الأخرى، وكل غرض من أغراض القصيدة يعمل على تحديد دور خاص للأنا في الحدث الشعري؛ لأنّ كل غرض له علاقة بالأنا يمكن معرفتها عبر صلة الأنا بالحدث، سواءً أكان هذا الحدث حدثاً ذاتياً كالغزل والفخر وكل ما يتصل بالذات الشاعرة من قضايا، أم كان حدثا موضوعيا يتصل

بالأغراض الأخرى كالمديح والهجاء والرثاء التي تتعلق بالآخر على النحو الذي يكون فيه الحدث موضوعياً، وهذا هو الذي يحدد دور الأنا في الحدث الشعري على مستوى الفاعلية والتأثير،

من هنا ممكن أن نستنتج أن العلاقة بين الأنا والحدث الشعري في الحالين الذاتي والموضوعي علاقة وطيدة لا يمكن إغفالها، وعليه لا بدّ من فهم تجربة القصيدة العربية على هذا الأساس من خلال البحث في جوهر هذه القصيدة وتلمّس الحدث الشعري أولاً، ومن ثمّ تلمّس دور الأنا الشاعرة في تسيير خطوط هذا الحدث ومستوى تأثير ذلك كله على جماليات التعبير الشعري، لأن الهدف الأساس من كل ذلك هو ما تتركه هذه العلاقة بين الحدث الشعري الأنا من انعكاسات جمالية على طريقة التعبير في القصيدة.

يقول الحطيئة مفتخراً بنفسه وولده [31]:

وطاوي ثلاثٍ عاصب البطن مرمل ... بتيهاء لم يعرف بها ساكنٌ رسما

أخي جفوةٍ فيه من الإنسِ وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نُعمى

وأفرد في شِعبٍ عجوزاً إزاءها ... ثلاثة أشباحٍ تخالُهمَ بُهما

حفاةً عراةً ما اغتذوا خبز ملّةٍ ... ولا عرفوا للبُرِّ مُذ خلقوا طَعما

رأى شبحاً وسط الظّلام فراعَهُ ... فلمَّا بدا ضيفاً تسوَّرَ وهتمَّا

فقال ابنُهُ لمَّا رآه بحيرةٍ ... أيا أبتِ اذبحني ويَسِّرْ له طُعما

ولا تعتذر بالعدم علَّ الذي طرا ... يظنَّ لنا مالاً فيوسعنا ذمَّا

فروَّى قليلاً ثمَّ أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاهُ فقد همَّا

وقال هَيَا ربَّاه ضيق ولا قريّ ؟ ... بحقك لا تحرمه تا الليلة اللّحما

فبينا هما عنّت على البُعد عانةٌ ... قد انتظمت من خلف مِسحلها نظما

عِطاشاً تريد الماء فانساب نحوها ... على أنه منها إلى دمها أظمْا

فأمهلها حتى تروَّت عطاشُها ... فأرسل فيها من كنانته سهما

فخرَّت نُحوصٌ ذاتُ جحشٍ سمينة ... قد اكتنزت لحماً وقد طبَّقت شحما

فيا بشرَهُ إذ جرَّها نحو قومه ... ويا بشرُهم لمَّا رأوا كلْمَها يدمى

فباتوا كراماً قد قضوا حقَّ ضيفهم ... فلم يغرموا غُرماً وقد غُنموا غُنما

وبات أبوهم من بشاشته أباً ... لضيفِهِمُ والأمُّ من بشْرها أمَّا

نرى ان الشاعر في هذه القصيدة يركز بدقة على السرد القصصي والحدث الشعري المتعلق بالذات والانا الشاعرة ويسلط الأضواء على جميع جوانبه من المنولوج الداخلي والحوار الذي دار بينه وبين ابنه والحيرة النفسية والمعنوية وتفاقم الحدث الذي يصل حد الانفجار ثم يخرج إلى خارج الفضاء الأسري ويدعو ربه أن يفرج عنه ولا يخزيه أمام ضيفه ويشير عليه ابنه اشفاقاً على حيرته واهتمامه الشديدين ، أن يفدي بنفسه لخروج الأب من هذه الحيرة والألم ـوالدائرة المغلقة ليستريح والده ويرفع رأسه أمام ضيوفه ،وهذه الكلمة تقال للتعبير عن الإخلاص والتضحية وتنفيس الكروب وهي تحمل جميع المعاني الإيجابية و الإنسانية التي تقال ، فبعد هذه المعاناة الفخرية يأتي فرج الله واستجابته للداعي بإرسال قطيع من الحمر الوحشية السمينة ، فيصطاد الشاعر واحداً منها ليقدمه لضيوفه ويذكر بكل فخر واعتزاز بأن رجولته ورئاسته للأسرة كملت بعد أن ضمن ما يكرم به ضيوفه وبدت آثار الأمومة والرعاية الحقيقية على زوجته لتفتخر بإكرامها للضيوف ورفع رأس الأسرة عالياً وهذا فخرٌ معنوي ومادي للأسرة برمتها ودليل واضح لدى الشاعر بأن من لم يكرم ضيفه ليس رجلا ولا ينبغي أن يفتخر برجولته بل هو موضع سخرية وذم لديه ولدى الناس ، هذه القصيدة متلاحمة متسلسلة لم نستطع اجتزاء أي بيت منها لوحدة عضويتها فهو يبدأ بذكر الضيوف وحالاتهم المعنوية والنفسية من

[31] الديوان : 178–179 .

الجوع والحر والتيهان في الصحراء مروراً بمعالجة هذه الحالة المزرية وصولاً إلى تحقيق كل ما ينبغي أن يقدم لهم من رحمة ورأفة ليكونوا في دائرة عطف الوالدين والإشفاق الأبوي ،فيفتخر الشاعر بنفسه وزوجته فيقول :

وبات أبوهم من بشاشته أباً لضيفهم والأم من بشرها أمّا

ونرى أيضا بأن الشاعر يروي القصص على حقيقتها له وعليه في موضع الفخر يفتخر بنفسه وفي موضع الهجاء يهجو نفسه وفي الحالتين هو صادق في مشاعره واحاسيسه لا كما يذكر النقاد بأنه ناقم على الحياة وعلى نفسه وكذلك شحيح الطبع غليظ النفس متقلب الشخصية بل يذكر الخير والشر غير مداهن لأحد .

وقال الحطيئة أيضا متغزلاً بحبيبته أمامة [32] :

ألا هبـــت أمامـــةَ بعـــد هـــدءٍ تعـــاتبني وتجبهُنـــي بظلـــمٍ

تعاتـــب أن رأتنـــي ســـاف مـــالي وطاوعـــت الصَّـــباء ورثّ جســـمي

وقنّعنـــي القتيـــبُ خمـــارَ شـــيبٍ وودَّعنـــي الشـــباب ورقَّ عظمـــي

فقلـــت لهـــا أمامـــة لـــيس هـــذا عتابـــك بعـــدما أجلمـــت[33] لحمـــي

فـــإن تكـــن الحـــوادثُ أقصـــدتني وأخطـــأهن ســـهمي حـــين أرمـــي

فقـــد أخطـــأت حـــين تبعـــت ســـهماً ســـفاهاً مـــا سُـــفهتُ وزلَّ حلمـــي

وبُـدِّلـــت النّعيـــم بـــدار ذُلٍ كـــذلك حرفتـــي وكـــذلك علمـــي

فـــلا لقيـــت شـــمالي يـــوم خيـــر ولا لقيـــت يمينـــيَ يـــوم غُـــنم

وهذه لوحة أخرى تظهر فيها أحداث الأنا الشاعرة بمشهد غزلي ذاتي تكشف عن رقة الشاعر وطراوة ألفاظه المتناسقة مع الغرض الذي يصبو إليه يرسم فيها صورة حبيبته وهي تعاتبه في مشهد دراماتيكي تظهر فيها حبيبته تشكو من جفوته وبعده وانصرافه عنها مما أدى إلى إتلاف ماله وتغيير صورته التي طالما كانت جميلة في نظرها من شدة الحب ، وكذلك بدت عليه ملامح الشيب والضعف في البنية ، فيصدقها ، ويعتذر لها بطريقته الأدبية السلسة التي تنسجم مع المشهد الغزلي ، معترفاً لها بأن بُعدَها أفقده صوابه وجعله يتيه الخير والشر وارتكب سفاهة عندما استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير

فقال :

وبدلت النعيم بدار ذل كذلك حرفتي وكذلك علمي

وهذه السمة من ملامحه الشخصية دائماً يعترف بخطئه الذي ارتكبه إزاء حبيبته بأسلوب جميل جداً للمعترف بذنبه ، ومن اعترف بذنبه كمن لا ذنب له ، والشاعر قد استمتع بهذا العتب وندم على فراقه وبعده عنها قد كلفه شبابه وماله وحتى رشده ، فوصل به الحد من فقد الصواب

فقال :

فلا لقيت شمالي يوم خير ولا لقيت يميني يوم غنم

وهذا اعتراف تقريري بأن بعده عنها جلب له أكثر مما ذكرت من المساوئ التي حلت به

فهذه القصة الشعرية ترمز إلى أن الشاعر كان محبوباً لدى حبيبته وهو الذي تركها وصدَّ عنها وهي لاتزال متعلقةً به مما جعله يعتذر منها ويندم على تركها ويعزو ذلك إلى سفاهة منه وقلة علم بالحياة الاجتماعية ، وترمز كذلك إلى عدم تعمده ، فيما حصل وغلظة قلب منه ولكن عاديات الدهر التي نسَّته وأبعدته عنها وأفقدته صوابه ووفاءه لحبيبته التي يظاهر بحبها ويتمنى لو تعود أيام الصبا لتجمع شملهم وتعيد أحلى ذكرياتهم ولكن الماضي لا يعود ، فهذه القصائد الغزلية التي تعبر عن حدث الحب سواءً في الماضي أو الحاضر هي من الأغراض الذاتية التي تتعلق بالشاعر في الصميم ، فيرويها بطريقة فلسفية جمالية تعبر عن ذات الشاعر وخياله تجاه الحدث الذي يسرده بطريقة شعرية ، والعلاقة الوطيدة بينه وبين محبوبته التي لم تنسه وصورته مرسومة في مخيلتها التي جعلتها

---

[32] الديوان ،ص ،175 .

[33] أجلمتِ :أخذت جلمتي ، يقال :أخذت جَلَمَة الجزور : أي لحمها كله ، يقال: أخذ الشيء بجلمته أي بحذافيره .

تقارن بين صباه وما طرأ عليه من التغير من خلال الواقع والحياة وجعلت ما حصل له أو عليه من التغيرات ليس بسبب تقادم الزمن بل بسبب بعده صدّه عنها ، فترمز القصة كذلك لمدى إخلاصها له وتعلقها به ، مما يجعل الشاعر في موقع فخر واعتزاز بنفسه من نيل رضا الفتيات ما يجعله بمستوى غيره من الشعراء الذين يسردون قصص الحب ويجعلون أنفسهم في موضع كبرياء وفخر أمام الناس .

اما الأغراض الموضوعية التي تتعلق بالمدح ، فيقول الشاعر [34]

في مدح خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه وأرضاه)

نأتـــــك أمامـــــة إلا ســـــؤالا ... وأبصـــرت منهـــا بغيـــبٍ خيـــالا

خيـــالاً يروعُـــك عنـــد المنـــام ... ويـــأبى مـــع الصـــبح إلا زوالا

أمـــين الخليفـــة بعـــد الرســـول ... وأوفـــى قـــريشٍ جميعـــاً حبـــالا

وأطـــولهم فـــي النـــدى بســـطةً ... وأفضـــلُهُم حـــين عـــدّوا فعـــالا

أتتنـــي لســـان فكـــذّبتها ... ومـــا كنـــت أحـــذرها أن تقـــالا

بـــأن الوشـــاة بـــلا جرمـــةٍ ... أتـــوك فرامـــوا لـــديك المحـــالا

فجئتـــك معتـــذراً راجيـــاً ... لعفـــوك أرهـــب منـــك النِّكـــالا

فـــلا تســـمعن بـــي مقـــال العـــدا ... ولا تـــوكلني هـــديت الرِّجـــالا

فإنّـــكَ خيـــرٌ مـــن الزَّبرقـــان ... أشـــدُّ نكـــالاً وخيـــرٌ نـــوالا

ابتدأ الحطيئة قصيدته المدحية بمقدمة غزلية تقليدية سبقه بها كعب بن زهير في ـــ بانت سعاد ـــ عندما جاء إلى رسول الله ﷺ ونال إعجاب الرسول ﷺ ، وعفا عنه ولذلك قلده الحطيئة بغية إرضاء خليفة رسول الله رضي الله عنه ، وشكراً للخليفة لعفوه عنه وإطلاق صراحه من السجن بدعوة من الزبرقان بن بدر في هجائه له وكان موقف عمر رضي الله عنه بارعاً عندما ردَّ الدعوة وقال هذا مدح وليس هجاء ولكن الزبرقان عزز دعوته على الحطيئة بتحكيم الشاعر حسان بن ثابت رضي الله عنه فانتصر الزبرقان على الحطيئة فحكم عليه بالسجن ثم استعطف الخليفة بأبيات من الشعر فعفا عنه الخليفة وأفرج عنه فأصبح لزاماً على الحطيئة أن يشكره ويثمّن هذا العطف والعفو فهذه من ملامح شخصية الحطيئة يجازي المحسن إليه كما يجازي المسيء إليه،

فالشاعر رسم صورة لحبيبته في الخيال لأن العاشق يعتقد أن السعادة الحقيقية تحصل في المنام ؛ لأنه يتمتع بحظٍّه لزيارة الحبيبة ويعتقد عكس ذلك ، أنه يصاب بالشقاء والحزن في عالم اليقظة والوعي ولهذا السبب نرى العشاق يحبّذون عالم الخيال والرؤيا على عالم اليقظة والوعي ، هم يرون في عالم اليقظة والوعي الفراق والهجر والشقاء والألم ، ويرون في عالم الأحلام الوصال، واللذة والسعادة ، واللقاء الذي يصل إليه العاشق في عالم الخيال والأحلام يكون من غير موعد واللذة التي لم تتصور ولم تحتسب في الذهن والانتفاع به أكثر من الانتفاع واللقاء الواقعي .

أما الغرض من القصة من خلال أحداثها وتجربتها وعلاقتها مع أنا الشاعر هو موقف الخليفة العادل مع الشاعر وانعكاسه وتأثيره وفاعليته عليه مما أدى إلى علاقة وطيدة بينهما في جماليات التعبير في القصيدة وكما أسلفنا أن الحدث هو جوهر التجربة الشعرية في القصيدة وفلسفة الشاعر من خلال تجربته الشعرية وملامحه الشخصية أدى إلى استنتاج لوحة شعرية نفيسة تفي بالغرض الذي يصبو إليه الشاعر من مدح رمز العدالة فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويصف بعض خصاله الذي تعلمها من مدرسة رسول الله ﷺ من الكرم والسماحة والشجاعة ثم يعتذر الشاعر ويوضح بأن الخليفة قادر على تعذيبه والنكال به أمام الناس ولم يفعل ترفعاً وسماحة منه ورحمة عليه ويوضح من خلال أبياته الشعرية بأن الذي قال عنه العدا لم يكن صحيحاً وينزه ممدوحه من منها ثم يصرح بالزبرقان بن بدر الذي كان خصمه ويقول أشد ما يقال عنه :

فإنَّكَ خيرٌ من الزُّبرقان ... أشدُّ نكالاً وخيرٌ نوالا

أي أن الزبرقان عديم المروءة وأنت صاحب المرؤة فأنت القوي وأنت الكريم وهو ضعيف وبخيل فلك المدح وله الهجاء .

ونرى الحطيئة في ديوانه كله يهجو الزبرقان بن بدر لحدث مريع حصل بينهما والزبرقان شيخ من شيوخ قبيلة بني تميم استضاف الحطيئة ولم يكن أهلاً لهذه الضيافة مما هيج مشاعر الحطيئة وفجر قريحته وأطلق عنان لسانه السليط ولم يشف غليله لما رأى من

[34] الديوان ،ص ، 150 –153 .

سوء ضيافته وقصر كرمه حتى أنزل صواعق من الهجاء والشتم عليه ، مما أدى إلى سجنه مرةً وشراء الذمة منه مرةً أخرى ،كما اسلفنا أيضاً أن القصيدة العربية منذ نشأتها وارتباطها بالعاطفة والخيال والواقع وتعتمد على فعالية الأنا التي ترتبط بملامح شخصية الشاعر وتجربته في الحياة

يقول الحطيئة [35]

أَنَخْنا ببيت الزَّبرقان وليتنا مضينا فقِلّنا وسط بيت المخبِّل
ظللنا لديه نستقي بحبالنا بذي المتن منها والضعيف الموصِل
وما الزَّبرقان يوم يحرمُ ضيفَهُ بمحتسب التقوى ولا متوكلِ
ولا عالمٍ ما في غدٍ غير أنه يرفع أعضاد الحياض بمعولِ
مقيمٌ على بنيان يمنع ماءه وماء وشيعٍ ماءُ عطشان مرملِ
وظل يناجي أمَّ شذرة قاعداً شُرسُوفها كُرْز حنظل[36]
فأنت الفداءُ لابن هوذة إنّه قَرانا فلم يبخلْ ولم يتعلّل
ظَلِلنا لديه في شواءٍ ونعمةٍ وظلّت ركابي في سريٍّ وجدول

من ملامح شخصية الحطيئة كان يصدع بمشاعره ولا يستطيع إخفاءها وخصوصا إذا رأى ما يخالف الواقع والطبيعة العربية من الكرم والشجاعة والصدق والأمانة فلما رأى الزبرقان يدَّعي رئاسة القبيلة ولا يؤدي واجبها صب عليه جام غضبه وانتهره وقال له [37].

في موضع آخر من غير هذه القصيدة

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فشكاه الزبرقان الى عمر بن الخطاب فسجنه عمر ثم عفا عنه بأبيات يستعطفه بها ، فكان يقصد في هذا البيت اقعد فإنك أنت المطعم المكسي فمن عبقريته الشعرية استخدم اسم الفاعل وهو يقصد اسم المفعول فسبب هذا الكره هو الحدث الذي جرى بين الشاعر والزبرقان عندما نزلوا عنده في بيته وقد تمنى الشاعر بقوله ويا ليتنا مضينا إلى بيت مخبّل وهو محمد أبو يزيد هو مخبّل السعدي الذي فضله على الزبرقان ولم يكن رئيساً للقبيلة ولكنه في نظر الشاعر هو أفضل من الزبرقان كرماً وحسن ضيافة لأن الزبرقان بفعلته التي فعلها إزاء الضيوف وحرمانهم من حقوق الضيافة المعهود عليها والمتعارف عليها جاهلياً وإسلاميا لم يكن تقياً ولا محتسب الأجر عند الله ولا عالماً بما سيحصل له بعد هذه الفعلة الشنيعة من الحطيئة ومن الله الذي فرض عليه حسن الضيافة ويصور الشاعر مشهداً درامياً حصل في بيت الزبرقان عندما يناجي الزبرقان زوجته أم شذرة وهي قاعدة لا تتحرك كأنها تحمل فوق ظهرها خرج حمار وهي عابسة كأنها أكلت الحنظل المر العلقم فهنا يجعله الشاعر فداء لرجل اسمه علقمة بن هوذة بن شماس التميمي فيقول

فأنت الفداء لابن هوذة إنه قرانا فلم يبخل ولم يتعلل
ظللنا لديه في شواءٍ ونعمةٍ وظلت ركابي في سري وجدول

لم يكرمهم علقمة فحسب بل أكرم دوابهم كذلك فهذه المفارقات هي صواعق من الهجاء على المهجو فقد نزع الحطيئة عباءة الزبرقان بن بدر في قبيلته وجعله في موضع مقت وسخرية لدى عشيرته ،

فهذه القصيدة الموضوعية في الهجاء ولكن الحدث كان متعلقاً جوهرياً ب " أنا الشاعر والشخصية الرئيسة للحدث الشعري والأنا تعمل في فضاء القصيدة من خلال الحدث الذي يوفر لها مساحة الدخول إلى ميدان التجربة ودورها مع الشخصيات الأخرى .

الخاتمة

---

[35] الديوان ، ص،162 –163 .
[36] ينظر:المصدر نفسه:ص163 (أم شذرة : زوجة الزبرقان ، كرز : خرج الراعي ،الشراسيف : مقاط الاضلاع ، يقول كأنها أكلت الحنظل في تعبسها) .
[37] الديوان ،ص ، 119 .

لقد استنتجنا من خلال هذا البحث ـ ملامح الشخصية في شعر الحطيئة ـ مجموعة نتائج :

أولاً : إن الحطيئة لم يكن شعره مقتصراً على الهجاء كما زعم كثير من النقاد بل نسج على جميع الأغراض : المدح ، الرثاء ، الغزل ، الحكمة ، الفخر .

ثانياً : وكان يهجو الشخص بما فيه من الأحداث الموجبة للهجاء كالبخل وقبح المنظر وسوء السريرة حتى كان يهجو أسرته ونفسه لما حملت من مثبطات شخصيته التي لم يستطع إعلاءها إلا لعبقريته الشعرية العالية الدقة والفصاحة والشجاعة وعدم التردد ،استثني من ذلك بعض القصائد التي نسبت إليه لنكث البيعة لأبي بكر رضي الله عنه أيام الردة التي حصلت بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ ، ومؤآزرته للوليد بن عقبة حين حدَّ بالشراب وجلده علي بن أبي طالب ولكننا لا ننسى قوله بعد ذلك :[38]

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكن التقيَّ هو السعيد

وتقوى الله خير زادٍ ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

مهما يكن الأمر فالرجل ليس معصوماً قد يجوز أنه ارتدَّ مع المرتدين ثم تاب عن ذنبه ورجع .

ثالثاً : اتُّهم بالردة كثيراً بلا أدلة أو بقرينة واحدة في وقت ارتد فيه أكثر القبائل وقصة الردة لم تخف على أحد عندما انبرى لها أبو بكرٍ الصديق وقضى عليها وتاب من تاب وقتل من قتل ، فلو كان الحطيئة ارتدَّ وبقي على الردَّة لكان السيف أقرب إليه من لسان النقاد الذين لا يعرفون إلا الجرح .

رابعاً :اتُّهم كذلك البخل والشح ولما قرأنا قصته وشعره استنتجنا بأنه لا يملك ما يبخل به ويحرص عليه وقصة ضيوفه ومبايعة ابنه له أن يذبحه ليجلي الحزن عن أبيه ثم منَّ الله عليه بقطيع من حمر النعم وصيده إحداهن خير دليل على تفنيد هذا الكلام ، فإن الشاعر فتح عينيه على مجموعة مثبطات من شأنها أن تجعل الولدان شيبا ورغم ذلك لم يتركه قلم النقاد ، ولقد انتصر على كل المثبطات والتخرصات

وأصبح حجة النحاة والبلغاء والأدباء بشعره الفصيح وأسلوبه الفريد وفلسفته النادرة وملامح شخصيته الفذة التي آمنت بالتحدي والصراع المستمر طيلة حياته .

ثبت المصادر والمراجع

1ـ البناء الفني لرواية الحرب في العراق دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة ،عبدالله إبراهيم ،دار الشؤون الثقافية العامة ،ط1،بغداد 1988 .

2ـ تداخل الفنون في القصيدة العربية الحديثة ،كريم شغيدل ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط1 ، بغداد ، 2007 م .

3ـ جمهرة اشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ،تح: علي محمد البجاري ،مطبعة النهضة ، مصر2015 م.

4ـ حديث الأربعاء : طه حسين ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة ـ مصر ، 2014م.

5ـ ديوان الحطيئة: برواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ، تحقيق ،درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت لبنان ، ط1 ،1429 هـ 2008 م .

6ـ ديوان الحطيئة : برواية ابن السكيت ، دراسة وتبويب د . مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ،بيروت ـ لبنان ،ط1 ،1413 هـ 1993 م .

7ـ ديوان : زهير بن أبي سلمى: تح : حمدو طماس ، دار المعرفة ط 3 ، 1429 هـ ، 2008 م.

8ـ الشعر والشعراء: ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تح : احمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، 1966-1967م.

9ـ العمدة في محاسن الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : البنيوي عبد الواحد شعلان ،ج1 ،مكتبة الخانجي ، ط1 ،القاهرة ،مصر ، 1420 هـ 2000 م .

10ـ كتاب الأغاني :أبو فرج علي بن الحسين الاصبهاني (ت 356 هـ) تحقيق ، احسان عباس ،ج1 ،دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ط3 ،1429 هـ 2008 م .

[38]الديوان : ص ، 79 .

11ـ معجم مصطلحات العربية في اللغة والادب : مجدي وهبة ،كامل المهندس ، مكتبة لبنان ـ بيروت ، ط2 ،1984 م .

12ـ مجاني الادب : فؤاد افرام البستاني ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ـ لبنان ،1951 م .

13ـ النقد الادبي :أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ط4، 1974 م.

14ـ النقد الأدبي : إيليا سليم الحاوي ، بيروت ـ لبنان ،ط3 ، 2020م.

الرسائل والأطاريح :

1ـ ملامح السرد في خمريات أبي نؤاس : حسين أحمد عبد ، رسالة ماجستير ، باشراف د . سالم محمد ذنون ،كلية التربية للعلوم الانسانية ، جامعة الموصل ، 2012 م .

List of sources and references

1- "The Artistic Structure of the Novel 'War in Iraq': A Study of Narrative Systems and Structure in Contemporary Iraqi Fiction" by Abdullah Ibrahim, General Cultural Affairs Department, 1st edition, Baghdad, 1988.

2- "Interplay of Arts in Modern Arabic Poetry" by Karim Shaghaydil, General Cultural Affairs Department, 1st edition, Baghdad, 2007.

3- "Collection of Arabic Poetry: Abu Zeid Mohammed ibn Abi Al-Khattab Al-Qurashi" edited by Ali Mohammed Al-Bajari, Nahda Printing Press, Egypt, 2015.

4- "Wednesday's Talk" by Taha Hussein, Hindawi Foundation, Cairo, Egypt, 2014.

5- "Diwan of Al-Hutay'a: According to the Narration of Ibn Habib from Ibn Al-A'rabī and Abu 'Amr Al-Shaybānī" edited by Druwesh Al-Jawidi, Modern Library, Sidon, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1429 AH (2008 CE).

6- "Diwan of Al-Hutay'a: According to the Narration of Ibn Al-Sakkīt" with a study and arrangement by Dr. Mufid Mohammed Qumayha, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1413 AH (1993 CE).

7- Diwan of Zuhair ibn Abi Salma: edited by Hamdo Tamas, Dar Al-Ma'arifah, 3rd edition, 1429 AH, 2008 CE.

8- "Poetry and Poets" by Ibn Qutaybah, Abu Muhammad Abdullah ibn Muslim ibn Qutaybah, edited by Ahmed Mohammed Shaker, Dar Al-Ma'arif, Egypt, 1966-1967 CE.

9- "Al-Umdah in the Beauties of Poetry and its Critique" by Ibn Rashiq Al-Qairawani, edited by Al-Baniwi Abdulwahid Shaalan, Volume 1, Khanji Library, 1st edition, Cairo, Egypt, 1420 AH (2000 CE).

10- "Book of Songs" by Abu Faraj Ali ibn Al-Hussein Al-Isbahani (d. 356 AH), edited by Ihsan Abbas, Volume 1, Dar Sader, Beirut, Lebanon, 3rd edition, 1429 AH (2008 CE).

11- "Dictionary of Arabic Terminology in Language and Literature" by Magdy Wahba and Kamil Al-Muhandis, Lebanon Library, 2nd edition, 1984 CE.

12- "The Literature in Vain" by Fouad Ephram Al-Bustani, Catholic Edition, Beirut, Lebanon, 1951 CE.

13- "Literary Criticism" by Ahmed Amin, Egyptian Renaissance Library, Cairo, 4th edition, 1974 CE.

14- "Literary Criticism" by Elias Salim Al-Hawi, Beirut, Lebanon, 3rd edition, 2020 CE. Theses and Dissertations:

1- "Narrative Aspects in the Wine Poetry of Abu Nuwas" by Hussein Ahmed Abdul, Master's thesis, supervised by Dr. Salem Mohammed Zanoun, College of Education for Human Sciences, University of Mosul, 2012 CE.